

دلائل الإعجاز

(وتَأْوى الطَّيِّبُ على الذِّئْلِ ...) .

مزيةً على الذي يُعْقَل من قولهم : الطبعُ لا يتغيَّر ولا يستطيعُ أن يخرجَ الإنسانُ عما جُبِّلَ عليه وأنَّ لا يرى لقول أبي نواس - السريع - : .

(وَلَيْسَ بِمُسْتَذْكَرٍ ... أن يَجْمَعَ العالمَ في واحدٍ) .

مزيةً على أنَّ يقالَ : " غيرُ بدیع في قدرةِ الله تعالى أن يجمعَ فضائلَ الخلقِ كلِّهم في رجلٍ واحدٍ " . ومن أدبٍ اه قولُ يقولُ إلى مثل هذا كان الكلام معه مُحالاً . وكنتَ إذا كلفتَه أن يعرفَ كمن يكلِّفُ أن يميِّزَ بحورَ الشعرِ بعضها من بعضٍ فيعرفَ المديدَ - الطويلَ - والبسيطَ - السريعَ - مَنْ ليس له ذوقٌ يقيمُ به الشعرَ من أصله وإنَّ اعترفَ بأن ذلك يكون قلنا له : أخبرنا عنكَ أتقولُ في قوله : .

(وتَأْوى الطَّيِّبُ على الذِّئْلِ ...) .

إنَّه غايةُ في الفصاحةِ فإذا قالَ : نعم . قيل له : أوَ كان كذلك عندك من أجل حروفِهِ أم من أجل حسنٍ ومزيةٍ حصلَ في المعنى فإنَّ قالَ : من أجل حروفِهِ دخلَ في الهذيان . وإنَّ قالَ : من أجل حسنٍ ومزيةٍ حصلَ في المعنى قيل له : فذاك ما أردناك عليه حين قلنا إنَّ اللفظَ يكونُ فصيحاً من أجل مزيةٍ تقعُ في معناه لا مِنْ أجل جَرِّه وصَدَّاه . واعلمُ أنَّ ليس شيءٌ أيبِّنَ وأوضحَ وأحرى أن يكشفَ الشُّبُهَةَ عن مُتَأَمِّلٍ له في صحةِ ما قلناه من التشبيهِ فإنَّكَ تقولُ : زيدٌ كالأسدِ أو شبيهُ الأسدِ . فتجدُ ذلك كلَّه تشبيهاً غُفلاً ساذجاً . ثم تقولُ : كأن زيداَّ الأسدُ . فيكونُ تشبيهاً أيضاً . إلا أنَّك ترى بينَهُ وبينَ الأولِ بَوَّناً بعيداً لأنَّكَ ترى له صورةً خاصةً وتجدُ قد فُخِّمَتِ المعنى وزدَتِ فيه بأن أفدتَ أنه من الشجاعةِ وشدةِ البطشِ وأنَّ قلبَهُ قلبٌ لا يخامرُهُ الذعرُ ولا يدخلُهُ الروعُ بحيثُ يتوهَّمُ أنه الأسدُ بعينه . ثم تقولُ : لئن لقيتَه ليلقيَنَّكَ منه الأسدُ فتجدُ قد أفاد هذه المبالغةَ ولكن في صورةٍ أحسنَ وصفةٍ أخصَّ وذلك أنَّكَ تجعلُهُ في " كأن " يتوهَّمُ أنه الأسدُ وتجعلُهُ ها هنا يُرى منه الأسدُ على القطع فيخرجُ الأمرُ على حدِّ التوهَّمِ إلى حدِّ اليقين . ثم إنَّ نظرتَ إلى قوله - الطويل - :